

2014

## لغتنا الزاخرة ذاخرة

Abdulmoneam Bchennaty

*Jinan University*, dr.bchenati@gmail.com

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinar>



Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#), and the [Arabic Studies Commons](#)

---

### Recommended Citation

Bchennaty, Abdulmoneam (2014) "لغتنا الزاخرة ذاخرة," *Al Jinan الجنان*: Vol. 5 , Article 3.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinar/vol5/iss1/3>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Al Jinan الجنان by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aar.edu.jo](mailto:rakan@aar.edu.jo), [marah@aar.edu.jo](mailto:marah@aar.edu.jo), [u.murad@aar.edu.jo](mailto:u.murad@aar.edu.jo).

عبد المنعم بشناتي

أستاذ دكتور

رئيس قسم اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية

جامعة الجنان

## لغتنا الزاخرة ذاخرة

تمهيد :

اللغة هي رمز التعبير ووسيلته، واللغة تنقل ما يجيش في خاطر البشر، ونوازع النفس، وما ينتاب الشخص من شعور دافق، وخلجات باطنة وظاهرة، فتنتقل إلى طالبها، بطريقة الأصوات، ونعبّر عنها بالأحرف والألفاظ .

وقد عرّف ابن جنّي اللغة، بأنها: أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم<sup>(١)</sup>.

وأما تصريف كلمة ( اللغة ) ومعرفة حروفها فإنها: فُعْلَة، من: لغوت. أي: تكلمت؛ وأصلها (لُغَوَة)، ككرة، وَقْلَة، وَثْبَة، كلّها لاماتها واوات<sup>(٢)</sup>.

وأمة العرب تاريخها سحيق، وفيما قبل التاريخ، كانت كلّ المواطن المعروفة في العالم القديم مسكونة بشعوب غير ساميّة ما عدا الجزيرة العربيّة. والعرب الساميون<sup>(٣)</sup> عاشوا فيما يلي

---

١- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، (١/ ٣٣) تحقيق محمد علي النجّار. دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت - لبنان .  
الطبعة الثانية .

٢- المرجع نفسه .

٣- الإستعمال العلمي للفظ «سامي» حديث العهد يرجع إلى عام ١٧٨١م ، عندما اقترحه اللغوي الألماني شلوتزر علما على الشعوب التي أنشأت في الجزء الغربي من آسيا حضارات ترتبط لغويًا وتاريخيًا كما ترتبط إلى حدّ ما بالأنساب . انظر الساميون ولغاتهم ، د. حسن ظاظا، ص ( ٩ ) دار القلم - دمشق، ١٩٩٠م، ط الثانية.

بلاد الأنضول إلى جنوب الجزيرة العربيّة، على ضفاف أربعة أنهر كبيرة، هم: دجلة، والفرات، وفيشون، وجيحون. وقد أفادت أبحاث المستشرق الألماني «فريتزهومل» أن ميل السطح في شبه جزيرة العرب، وتعرّضه للرياح الموسميّة، ربّما قد تغيّر بانخساف في طبقات الأرض قنذر الماء في شبه الجزيرة العربيّة، وجفّ النهران الكبيران -فيشون و جيحون<sup>(١)</sup>- ولهذا ذكر التاريخ الحضارة اليمنيّة بعمارة السدود وخزانات المياه، التي من أشهرها سدّ مأرب، محاولة التغلب على القحط الذي أثر كثيرا على السكّان الأصليين، وهم عرب الجاهلية ويدعون بالعرب البائدة، إذ حلتّ عليهم الكوارث، أمثال: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم، ووبار.. وغيرهم<sup>(٢)</sup>.

والحديث النبويّ الشريف يؤكّد هذا التوجه، فإنّ جزيرة العرب كانت مروجاً خضراء، فمن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»<sup>(٣)</sup>.

والعربيّة البائدة تطلق على بعض لهجات العرب وكانوا يسكنون قديماً في مناطق واقعة في شمال الجزيرة العربيّة، في واحات تيماء والحجر -مدائن صالح- ومنطقة العلا في شمال الحجاز. وكانوا بعزلة عن عرب نجد والحجاز.

وتتنفق اللغة العربيّة البائدة مع العربيّة الباقية في كثير من مقوماتها وخصائصها في الأصوات والقواعد والمفردات. فيكثر فيها ورود أصوات الذال والثاء والغين والضاد... وغيرهم، وتشتمل على أهم خاصة لقواعد اللغة العربيّة، وهي خاصة الإعراب بالحركات، فهي تلحق أصوات مدّ قصيرة بآخر الكلمة لبيان وظيفتها، وعلاقتها بقيّة عناصر الجملة، ووجوه الشبه أظهر ما يكون في أصول المفردات وأسماء الأعلام، وفي مسائل تصريف الأفعال، وعلامات الإعراب عند حذفها<sup>(٤)</sup>.

وقد درس الدكتور خليل يحيى نامي في كتابه<sup>(٥)</sup> العديد من المسائل والظواهر اللغوية القديمة في بيان تاريخ اللغة العربيّة قبل الإسلام، ويفيظ في المقارنة بينها وبين أخواتها الساميّة في الحروف والضمائر وتخصيص معاني أبنية الفعل وتنويعها والاشتاقات الصرفيّة، ويذكر اللهجات العربيّة القديمة، النموديّة والصفويّة واللحيانية والنبطيّة. ويسهب في الحديث عن ظاهرة الإعراب في العربيّة، وأنه قديم فيها منذ الجماعات الساميّة الأولى، الأكديّة والبابليّة

١- لعلنا يجب أن نذكر أنّ هذين النهرين ما تزال أجزاء من مجرى كلّ منهما موجودة إلى الآن يملؤها المطر إذا انهمرت سيوله في بعض الأحيان.

٢- انظر نفس المرجع ص (١٦) وما بعدها.

٣- صحيح ابن حبان، رقم الحديث (٦٨٥٥).

٤- انظر فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وا في، ص (٩٩). نشر: دار نهضة مصر. القاهرة. الطبعة السابعة.

٥- انظر كتاب دراسات في اللغة العربيّة. د. خليل يحيى نامي. دار المعارف بمصر.

والأشورية القديمة والأوجريّة والنبطيّة. ويبيّن الأسماء الممنوعة من الصرف، وأن المنع من الصرف قديم في اللغات الساميّة، وأن العربيّة الفصحى هي التي ظلت تحتفظ به، ويعقد بحثاً مستفيضاً في التضاد الجنسي وعلاماته من خلال مقارنات واسعة بين العربيّة واللغات الساميّة، ويبحث في أسماء العدد ومخالفاتها للمعدود تذكيراً وتأنيثاً، ويفصّل البحث في دراسة الضمائر، والاسم الموصول، وجموع التكسير، والكتاب يدرس علم فقه اللغة العربيّة الكلّيّة والجزئيّة<sup>(١)</sup>.

فإذا كنّا لانعرف شيئاً عن المراحل التي اجتازتها اللغة العربيّة، فإنّ الدلائل التي تشير إلى اتصالها بأخواتها اللغات الساميّة تبين عمق امتداد عراققتها السحيق، والذي يصل إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، فـلغات الأمم الساميّة تتشابه في نقاط كثيرة رئيسة والألفاظ المتداولة بينها تمثل نسبة ضخمة من ثروتها اللغويّة<sup>(٢)</sup>.

وهذا يفسّر تمسّك العرب بلغتهم الفصحى في العصر الجاهلي، ويعتبرونها لغة مقدّسة، فكانوا يتلقونها مشافهة من الأعراب مباشرة، حرصاً عليها وصوناً للسانهم. كما يفسّر إجماع علماء النحو المقارن للغات الساميّة، أمثال: بروكلمان، ووليم رايت، وأدوارد روم، ودافيد ليلين، على أنّ اللغة العربيّة الفصحى هي بلا منازع أقدم صورة حيّة من اللغات الساميّة الأم، وأقرب هذه الصور إلى تلك اللغة التي تفرّعت منها بقيّة اللغات الساميّة<sup>(٣)</sup>.

أمّا العربيّة الباقية، فهي اللغة التي تنصرف إليها كلمة العربيّة عند إطلاقها، وهي لغة الأدب والكتابة والتأليف، ونشأت ببلاد نجد والحجاز في الجزيرة العربيّة، بعيداً عن اللغات التي يمكن أن تؤثر في أصواتها أو مفرداتها، وهذا يفسّر لنا المحافظة على شخصيّتها المميّزة بين اللغات، وصحيح قد قيل: أنه دخلتها العجمة في قليل من المفردات، إلا أنّ ذلك محتمل في الصراع اللغوي، من تأثر وتأثير، إذ كان أثر اللغات الأخرى فيها بسيطاً جداً، أمام البحر الهائل من المفردات التي تتمتع بها اللغة العربيّة الفصحى الباقية.

وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يعرف بالأدب الجاهلي، وهو آثار أدبيّة تسبب لطائفة من شعراء العصر الجاهلي وحكمائه وخطبائه، ويرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس بعد الميلاد، وحفظت في قلوب العرب أمداً طويلاً، وجمعت ودوّنت في القرون الأولى للعصر الإسلامي. وهي تمثّل عنفوان اللغة الحيّة واكتمالها وعظمتها، بعد أن اجتازت مراحل كثيرة في التطوّر والارتقاء، واستأثرت بميادين الأدب من شعر ونثر وخطابة، في جميع القبائل العربيّة، وهي التي سمّيت بعد

١- انظر مقدّمة المرجع السابق، ص ( ٢ ) للدكتور شوقي ضيف .

٢- انظر الساميون ولغاتهم، ص ( ١١ ) و ( ١٢ )

٣- انظر الساميون ولغاتهم، ص ( ١٦ ) .

ذلك بلغة قريش، على وجه التقريب<sup>(١)</sup>.

وعلماء أصول اللغة العربيّة القدامى لهم آراء في أصل اللغة العربيّة، هل هي توقيف، أم اصطلاح؟ واستشهدوا بقوله تعالى على أنها توقيفيّة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) وهذا موضوع يطول شرحه، وله جوانب متعدّدة، ويتصل بالمسائل العقديّة والدينيّة، ويخرج عن النطاق اللغوي<sup>(٢)</sup>.

وحدّد علماء اللغة العربيّة الحروف المستعملة والمهملة عند العرب، فالحروف المستعملة في كلامها في الأسماء والأفعال تسعة وعشرون حرفاً، مرجعهم إلى ثمانية وعشرين حرفاً، منها حرفان مختصّ بهما العرب دون الخلق وهما «الحاء والظاء»، ويرى بعض اللغويين أن «الحاء» في السريانيّة والعبرانيّة والحبشيّة كثيرة، وأن «الظاء» وحدها مقصورة على العرب، ومنها ستة أحرف للعرب ولقليل من العجم، وهنّ: العين، والصاد، والضاد، والقاف، والطاء، والثاء، وما سوى ذلك فلخلق كلّهم، من العرب والعجم، إلا «الهمزة» فإنّها لم تأت من كلام العجم إلا في الابتداء، وهذه الحروف تزيد على هذا العدد، إذ استعملت حروف لاتتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطرّوا إليها حولوها عند التكلّم إلى أقرب الحروف من مخارجها<sup>(٣)</sup>.

ويبيّن سيبويه أصل الحروف العربيّة - كما ذكرنا - وذكر أنها تكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فُرُوعٌ، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة، ويؤخذ بها وتُستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: النون الخفيفة، والهمزة بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفتيح - يعني بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة.. وتكون اثنتين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة، في لغة من تُرتضى عربيّته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف بين الجيم والكاف، والجيم التي كالکاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالتاء، والباء التي كالفاء، وهذه الحروف التي اثنتين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون، ولا تُتبيّن إلا بالمشافهة، إلا أنّ الضاد الضعيفة تُتكلّف من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلّفها من الجانب الأيسر<sup>(٤)</sup>.

١- انظر فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وإفي، ص (١٠٧)

٢- سورة البقرة، آية (٢١).

٣- انظر الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهما، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا، ص (٦) تحقيق السيّد أحمد صقر، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة - ١٩٧٧ م.

٤- انظر جمهرة اللغة، لابن دريد، (٤/١) دار صادر، بيروت.

٥- انظر الكتاب، لأبي بشر عمرو، الملقب: سيبويه (٤٨٨/٢) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. لبنان. الطبعة الثانية، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

وذكر ابن جني الحروف الفرعية المستحسنة، والحروف الفرعية المستقبحة وقال عنها: ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مردولة، غير مقبولة<sup>(١)</sup>. ولذلك أسقط علماء اللغة العربية هذه الأصوات المرفوضة في الذوق العربي الفصيح، وأبقوا ما تذوقه العربي الفصيح من الأصوات اللغوية ورمز له، وجعل حرفاً معترفاً به عند العرب، ولذلك لا يوجد في اللغة العربية الفصيحة الأصوات اللغوية المعمول بها في لغات أخرى، مثل: ك، ف، پ، چ، وإن كانت في اللهجات العربية مستعملة إلا أن اللغوي الفصيح لم يستعملها، وتعتبر من الوحشي المستنكر.

وقد روى ابن دريد الأزدي لهجات أهل اليمن وغيرها، وهو الخبير العالم بها -فهو من أصول عربية يمنية- فوصفها بدقة، وبيّن نطقها، وكيف تكتب، لكيلا تلتبس بالصوت الفصيح، فقال: فمنها: تلك الحروف الحرف الذي بين (الباء والفاء) مثل (پور) إذا اضطروا إليه قالوا (فور)<sup>(٢)</sup> ومثل الحرف الذي بين (القاف والكاف)<sup>(٣)</sup> و(الجيم والكاف)<sup>(٤)</sup> وهي لغة سائرة في اليمن، مثل (جمل) إذا اضطروا إليه قالوا: (كَمَل) بين الجيم والكاف، ومثل الحرف الذي بين (الياء والجيم) وبين (الياء والشين) مثل (غلامي) فإذا اضطروا قالوا: (غلامج) ... و(غلامش)<sup>(٥)</sup>، وكذلك ما أشبه هذا من الحروف المرغوب عنها. فأما بنو تميم فإنهم يلحقون (القاف بالكاف) فتغلظ جداً، فيقولون (الكوم) يريدون: القوم، فتكون «القاف» بين (القاف والكاف) وهذه لغة معروفة في بني تميم<sup>(٦)</sup>.

وقد صنّف علماء اللغة اللغات الفصيحة واللغات العربية الرديئة، وقال أبو نصر الفارابي: كانت قريش أفصح العرب ففتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عما في النفس؛ والذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، وهم: قيس، وتمر، وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف؛ ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم.

وبالجملة لا يؤخذ من حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لحَم، ولا من جُزام، لمجاورتهم أهل مصر والقيبط، ولا من قضاة، وغسان، وإياد، لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرءون

١- انظر سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني (١/ ٥١) تحقيق مصطفى السقا، محمد الزفراف، إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. بمصر. الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ. ١٩٥٤م.

٢- هكذا في الأصل، ولعلها (فور) وينطقونها مثل الصوت الأجنبي (ف) (ليستقيم المعني).

٣- فيغلظون القاف، وينطقونها من غير مخرجها الفصيح مثل الصوت الأجنبي (G) في مثل كلمة (Guilty). فبنو تميم يلحقون القاف باللهاء. ومعنى تغليظ القاف التلفظ بصوت الكاف الفارسي

٤- فينطقونها يابسة غير معطشة، مثل الجيم القاهرية، وتكتب بثلاث نقط (چ). أو الفارسية (ك).

٥- الحرف الذي بين الشين والجيم والياء في المذكر (غلامج) وفي المؤنث (غلامش).

٦- انظر جمهرة اللغة، لابن دريد، (١/ ٥٤).

بالعبرانية، ولا من تغلب والنمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزدِعمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب<sup>(١)</sup>.

فكانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، وعلى نسبة بعد القبائل وقربها من قريش، كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد، عند أهل صناعة اللغة العربية<sup>(٢)</sup>.

ويرى شيخ العربية الأصمعي أن أفصح العرب قبيلة قريش، ويروي أن معاوية قال ذات يوم لجلسائه: من أفصح الناس؟ فقام رجل من السُّمَّاط، فقال: قوم تباعدوا عن عننة تميم، وتلتة بهراء، وكشكشة ربيعة، وكسكسة بكر، ليس فيهم غمغمة قضاة، ولا طمطممانية حمير، فقال من أولئك؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين<sup>(٣)</sup>.

وقد عقد ابن فارس باباً في اللغات المذمومة<sup>(٤)</sup>، وذكر فيه تلك اللهجات المردودة. وعقد باباً آخر سمّاه: باب القول في أفصح العرب. قال فيه: أجمع علماءنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم، ومحالّهم: أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة.. وكانت قريش -مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقّة ألسنتها- إذا أتهتهم الوفود من العرب، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم (طبائعهم) وسلّثهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب<sup>(٥)</sup>.

وأفصح الخلق على الإطلاق سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حبيب رب العالمين جلّ وعلا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أفصح العرب». رواه أصحاب الغريب<sup>(٦)</sup>، ...

١- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، (١/ ٢١١. ٢١٢) شرح وتعليق محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون تاريخ.

٢- انظر العبر وديوان المبتدأ والخبر، المشهور بمقدّمة ابن خلدون، ص (٤٩) القاهرة ١٣٢٧هـ.

٣- انظر درة القواص، في أوهام الخواص. للقاسم بن علي الحريري، ص (٢٥٠) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر. الفجالة. القاهرة. ١٩٧٥م.

٤- انظر الصحابي، ص (٣٥).

٥- انظر الصحابي، ص (٣٢).

٦- ورواية الزمخشري: أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر. وروي: «ميد أني». الفائق في غريب الحديث. (١/ ١٤١) تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية. والحديث له روايات أخرى.

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي: أن رجلاً قال: يا رسول الله؛ ما أفصحك! فما رأينا الذي هو أعرب منك. قال: «حق لي، فإنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين». وقال الخطابي: اعلم: إن الله لما وضع رسوله صلى الله عليه وسلم موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصّب البيان لدينه، اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها، ثم أمده بجوامع الكلم<sup>(١)</sup>.

أمّا القرآن الكريم فقد حيرت فصاحته، وبيانه، وأسلوبه، وجدله، ومحكمه، ومفصله... وغير ذلك، عقول فصحاء العرب وحكمائهم وشعرائهم، فكان الكلام المعجز الذي لا يرقى إليه كلام البشر، فكان المثل الأعلى. إلى جانب الشريعة الإسلامية. للفصاحة العربية، والانسباك الأدبي واللغوي، والإعجاز البياني والمعنوي، لا يدانيه حديث، ولا يقاربه إبداع، فبرز إعجاز القرآن في جميع العلوم.

وقد تحدّث السيوطي في موضوع إعجاز القرآن، فقال: أفرد بالتصنيف خلائق منهم الخطابي والرماني والزمكاني والإمام الرازي وابن سراقه والقاضي أبو بكر الباقلاني، ... وقال: اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وهي إما حسية، وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادهم، وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم<sup>(٢)</sup>.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن الكريم، وكانت قبيلة قريش أفصح الفصحاء، ومصافح الخطباء، وتحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدرُوا، قال تعالى: ﴿فَلْيَاْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾<sup>(٣)</sup> واستمرّ القرآن في تحدي العرب الفصحاء، وأصحاب البيان والبلاغة، ثم تحدّاهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِينَ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٤)</sup> وخفف القرآن الكريم الكميّة المطلوبة في التحدي، بأن يأتوا بسورة واحدة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٥)</sup> وكرّر التحدي مرّة ثانية، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٦)</sup> فلمّا عجزوا عن معارضته

١- المزمهر في علوم اللغة وأنواعها، ص (١ / ٢٠٩).

٢- الإتيان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، (١١٦ / ٢) الطبعة الثالثة، ١٩٥١م، مصطفى البابي الحلبي.

٣- سورة الطور، الآية (٢٤).

٤- سورة هود، الآية (١٢).

٥- سورة يونس، الآية (٢٨).

٦- سورة البقرة، الآية (٢٣).

والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء : نادى عليهم بإظهار العجز، وإعجاز القرآن، فقال تعالى: ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٨٨). فهذا وهُمُ الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نور القرآن الكريم، وإبطال وإخفاء أمره، وشعروا بضعفهم أمام فصاحة وبلاغة القرآن الكريم الذي لا يدانيه كلام بشري .

أخرج الحاكم عن ابن عباس قال جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقراً عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال له: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك ما لا يعطوكه، لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله، قال: قد علمت قريش إنني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له، قال: وماذا أقول! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا، ووالله، إن لقوله بالذي يقول والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلام، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه، وإنه ليُحطَم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال دعني حتى أفكر، فلما فكر، قال: هذا سحر يؤثر عن غيره (٢).

كانت حادثة الوليد بن المغيرة حجة دامغة على فصحاء العرب، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً، بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، لقد صدم القرآن الكريم فصحاء وبلغاء العرب، فركنوا إلى ترك معارضته خشية هزيمتهم المتوقعة أمام بيان القرآن العظيم.

قال عبد القاهر الجرجاني: فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل، والعجيب من الوصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوى والقدر، وقيد الخواطر والفكر، حتى خرست الشقاشق (٣)، وعُدم نطق الناطق، وحتى لم يجر لسان ولم يبين بيان، ولم يساعد إيمان، ولم ينقذ لأحد منهم زُند، ولم يمض له حد... (٤).

فلما ثبت كون القرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز، وقد خاض الناس في ذلك كثيراً، فبين محسن ومسيء، فزعم قوم أن التحدي وقع بالكلام القديم، الذي هو صفة الذات، وأن العرب كلقت في ذلك ما لا يطاق وبه وقع عجزها، وهم مردود، لأن ما لا

١- سورة الإسراء، الآية (٨٨) .

٢- الإتيان في علوم القرآن ( ٢ / ١١٧ ) .

٣- تقول : هدرت شقاشق الخطيب: كناية عن البلاغة ومواتاة الكلام له. وعكسه: خرس شقاشقه .

٤- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، المدخل في دلائل الإعجاز، ص ( ٤٨ )، تعليق محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م . مكتبة القاهرة بشارع الصناديق - بميدان الأزهر . بمصر .

يمكن الوقوف عليه لاي تصور التحدي به. والصواب ما قاله الجمهور: أنه وقع بالدال على القديم، وهو الألفاظ. ثم زعم النظام<sup>(١)</sup> أن إعجازه بالصرفة، أي: أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدوراً لهم، لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات، وهذا قول فاسد، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾<sup>(٢)</sup> فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولوسلبوا القدرة لم تبقى فائدة... فكيف يكون القرآن معجزاً وليس فيه صفة الإعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الاتيان بمثله... وخلق القرآن من الإعجاز وفي ذلك خرق لإجماع الأمة...<sup>(٣)</sup>.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني<sup>(٤)</sup>: مما يبطل القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون بالمنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه... وقال: ووجه إعجازه ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم، ولهذا لم يُمكنهم معارضته<sup>(٥)</sup>.

والقرآن الكريم أمثلة اللغة الفصحى تضمن نظمها: الإيجاز، التشبيه، الإستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف، التضمن، المبالغة، حسن البيان... لقد جمع القرآن الذوق القرشي المرفه، والأسلوب العربي الرصين السلس، ومزج في أسلوبه الرائع بين اللفظ الفصيح والمعنى الموحى، في أحسن نظام للتأليف، مضمناً أصح العبارات، فكان أسلوبه جار وفق أساليب العرب في الأداء، والتعبير عن المعاني، فتميز في كل جملة وآية، فأدهش الباب العرب قاطبة، ووقفوا حيارى أمام هذا التحدي الكبير، فخرت جباه الجبابرة أمام كلام الله، فهو كلام مقدس، والمثل الأعلى لنظام اللغة العربية الفصحى.

والإسلام كان له أثر هام في اللغة العربية، فقد أثر مباشرة في المفردات وتطور معانيها، من المعنى اللغوي البحت إلى معان اصطلاحية جديدة عرفها الفقه الإسلامي، والاستبقاء على المصطلح اللغوي الأصلي، قال ابن فارس: فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونُسخت ديانات، وأُبطلت أمور، ونُقلت من اللغة ألفاظ عن مواضعها إلى مواضع آخر بزيادات زیدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت...

١- كان كثير من المعتزلة يرون أن الإعجاز سببه الصرفة، وينسب هذا المذهب إلى النظام المعتزلي (٢٢٨هـ) انظر دلائل الإعجاز ص (٢٢).

٢- سورة الإسراء، الآية (٨٨).

٣- الإقتان في علوم القرآن ٢/ ١١٨.

٤- أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) كتابه يسمى: إعجاز القرآن

٥- انظر الإقتان في علوم القرآن، ٢/ ١١٨.

فكان ممّا جاء في الإسلام : ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق. وأنّ العرب إنّما عرفت المؤمن من الأمان، والإيمان وهو التصديق، ثمّ زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سُمّي المؤمن بالإطلاق مؤمناً.

وكذلك الإسلام والمسلم، إنّما عرّفت منه إسلام الشيء، ثمّ جاء في الشرع من أوصافه ما جاء. وكذلك كانت لاتعرف من الكفر إلا الغطاء والستر. فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نفاق اليربوع. ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم: «فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ» إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأنّ الفسق: الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جلّ ثناؤه. وممّا جاء في الشرع: الصلاة، وأصله في لغتهم: الدعاء. وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود، وإن لم يكن على هذه الهيئة. وكذلك الصيام، أصله عندهم: الإمساك، ثم زادت الشريعة النية، وحظرت الأكل والمباشرة، وغير ذلك من شرائع الصوم... وعلى هذا سائر ما تركنا ذكره من العمرة والجهاد، وسائر أبواب الفقه. فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول: في الصلاة اسمان لغويّ وشرعيّ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه، ثمّ ما جاء الإسلام به... وسائر العلوم، كالنحو والعروض والشعر: كلّ ذلك له اسمان لغويّ وصناعيّ<sup>(١)</sup>.

ونقل السيوطي في معرفة الألفاظ الإسلامية، ما قاله أحمد بن فارس، وبيّن عدداً من الأسماء والتراكيب التي كانت فزالت بزوال معانيها، مثل: المربع<sup>(٢)</sup>، والنشيط<sup>(٣)</sup>، والفضول<sup>(٤)</sup>، والصفّي<sup>(٥)</sup> والإتاوة، والمكس، والحلوان، وقولهم: أنعم صباحاً، وأنعم ظلاماً، وقولهم للملك: أبيت اللعن، وقول المملوك لمالكه: ربّي، وتسمية من لم يحج: ضرورة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: لا ضرورة في الإسلام. ومعناه: الذي يدع النكاح تبّلاً، أو الذي يحدث حدثاً، ويلجأ إلى الحرم، وقولهم: حجراً محجوراً، وكان هذا عند الحرمان، إذا سئل الإنسان، فيعلم السامع أنه يريد أن يحرّمه. أو يقولها مثل الاستعاذة، كأن يقولها الخائف، أي: حرام عليك التعرّض لي.

ومما ابتكره الإسلام من الألفاظ: الجوائز: العطايا، الواحدة جائزة. ولم يكن المحرّم معروفاً في الجاهلية، وإنّما كان يقال له ولصفر الصفرين، وكان أوّل الصفرين من أشهر الحرّم، وكانت العرب تسمّي صفر الأوّل، وصفر الثاني<sup>(٦)</sup>.

هذه نماذج في أثر الإسلام باللغة العربيّة وتطوّرها ونموّها.

١- انظر الصحابي. باب الأسباب الإسلاميّة. ص ( ٨٦. ٧٨ ) .

٢- المربع: ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهليّة

٣- ما يأخذه الرئيس قبل أن يصل إلى يد قومه .

٤- الفاضل أو الباقي من الغنيمة بعد القسمة ، فلا تستقيم قسمتها على الجيش لقنّته وكثرة الجيش .

٥- ما يصطفيه الرئيس لنفسه من المغنم قبل القسمة مع الربع الذي له،

٦- انظر المزهر ( ١ / ٢٩٤ ) ومابعدھا .

وقد أخذ التأليف في العصر العباسي مكانة مرموقة، وانتشرت المعارف والابتكارات في جمع اللغة، والمحافظة عليها، وظهرت المدارس النحوية لدراسة الظواهر اللغوية، فألفت المعاجم اللغوية والمعنوية، وكتب النحو وضمنه الصرف، والبلاغة، والعروض، وفقه اللغة وأسرارها، وعلم اللغة والأصوات والتجويد... فهضمت الدراسات اللغوية العربية في وقت متقدم من التاريخ.

### لغتنا الزاخرة

لغتنا العربية الفصحى أسمى اللغات، وأرقاها في الأسلوب، ودقة التعبير، أصلها ضارب في عمق فجر الإنسانية، لغتنا ورثناها كابراً عن كابر، لغة عالية المناقب، شامخة على المنابر، زكية الأصول والفروع، ساحرة القلوب والأفئدة، شريفة المقام.

قال أحمد بن فارس: (زخر) الزاء والخاء والراء أصل صحيح، يدل على ارتفاع، يقال: زخر البحر، إذا طما، وهو زاخر. وزخر النبات، إذا طال. ويقال: أخذ المكان زخاريه، وذلك إذا نما النبات وأخرج زهره<sup>(١)</sup>.

وقال الأزهري: قال أبو عمرو: الزاخر: الشرف العالي... وقال أبو تراب: سمعت مبتكراً يقول: زَاخَرْتُهُ فزَخَرْتُهُ، وفاخَرْتُهُ ففَخَرْتُهُ... وقال الأصمعي: فخر بما عنده، وزَخَرَ: بمعنى واحد<sup>(٢)</sup>.

فمادة (زَخَرَ) عند العرب تدل على معانٍ وجيهة حول العلو والارتفاع والشرف والفخر، وفي مجموع معاني هذه الألفاظ ندرك معنى العنوان (لغتنا الزاخرة) بأنها اللغة الشريفة التي تعلق ويُفَخَّرُ بها. وكان ابن خالويه في شرح الدرديّة سَمَّى اللغة العربية باللغة الشريفة<sup>(٣)</sup>.

ويكفي اللغة العربية أن الله عز وجل زينها بنزول القرآن الكريم بهذه اللغة الشريفة التي تستطيع أن تتحمل معاني القرآن الكريم الرائعة، وما فيها من أساليب متنوعة: ﴿عَلَيْنَا إِنَّهُ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١١٢)</sup> نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ فوصفه الله جل ثناؤه بأبلغ ما يوصف به الكلام، وهو البيان.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٢﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾<sup>(٥)</sup> فقدم جل ثناؤه ذكر البيان

١- معجم مقاييس اللغة. لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. (زخر) (٥٠/٢) تحقيق عبد السلام محمد هارون. الطبعة الثانية، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، مطبعة البابي الحلبي بمصر.

٢- تهذيب اللغة. لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، (زخر) (٢٠٢/٧) سلسلة تراثا، الدار المصرية للتأليف والترجمة. الطبعة الأولى. تحقيق جماعة من اللغويين. وانظر مادة (زخر) (٤٠٨/٥) لسان العرب، لابن منظور، سلسلة تراثا، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٣- انظر المزهري (٢١٣/١).

٤- سورة الشعراء، الآيات (١٩٢ - ١٩٥).

٥- سورة الرحمن، الآيتان (٤ - ٣).

على جميع ما توحد بخلقه وتفرّد بإنشائه... فلما خصّ جلّ ثناؤه اللسان العربيّ بالبيان عِلْم أنّ سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه .

وكان أحمد بن فارس قد عقد باباً سمّاه: القول في أنّ لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، ومما قال فيه أيضاً : فإن قال قائل: فقد يقع البيان بغير اللسان العربيّ، لأنّ كلّ من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بيّن .

قيل له: إن كنت تريد أنّ المتكلّم بغير اللغة العربيّة قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخسّ مراتب البيان، لأنّ الأبكّم قد يدلّ بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمّى متكلّماً، فضلاً عن أن يسمّى بيّناً أو بليغاً .

وإن أردت أنّ سائر اللغات تُبيّنُ إبانة اللغة العربيّة فهذا غلط، لأنّا لو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسيّة لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربيّة صفات كثيرة، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين ذلك من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟ هذا ما لاختفاء به على ذي نهية<sup>(١)</sup> .

وحين ذكر ابن قتيبة ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب في القرآن، قال: ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشيّة والروميّة، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله عزّ وجلّ بالعربيّة، لأنّ العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب<sup>(٢)</sup> .

ألا ترى أنّك لو أردت أن تنقل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾<sup>(٣)</sup> لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ المؤدّية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتظهر مستورها، فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقصاً فأعلمهم أنّك قد نقضت ما شرطته لهم وأذنبهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء<sup>(٤)</sup> .

ولو سألنا مثلاً: هل يوجد في سنن العرب ونظمها ما يجري هذا المجرى ؟

أجبنا: إنّ كلام الله جلّ ثناؤه أعلى وأرفع من أن يُضاهى أو يُقابل أو يعارض به كلام، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام العليّ الأعلى، خالق كلّ لغة ولسان، لكن الشعراء قد يَوْمُون إيماءً ويأتون

١- الصاحبى ، صفحة ( ١٧ ) .

٢- أنظر تأويل مشكل القرآن، صفحة ( ١٦ ) .

٣- سورة الأنفال، الآية ( ٥٨ ) .

٤- الصاحبى ، صفحة ( ١٧ ) .

بالكلام الذي لو أراد مُريد نقله لاعتاص<sup>(١)</sup> وما أمكن إلا بمبسوط من القول وكثير من اللفظ<sup>(٢)</sup>.

فاللغة العربية التي شَرَّفها الله عزَّ وجلَّ بنزول القرآن الكريم بألفاظها وأساليبها، فَخَرَتْ بنفسها على كلِّ اللغات، إذ احتملت الاعجاز البياني والمعاني لكلام الله عزَّ وجلَّ، فقد تميَّزت اللغة العربية بتنوع أساليبها البيانية، وتراكيبها النحوية، واتسعت للصور التي لم يتكلَّم بها العرب سابقاً، وتحدَّث بها القرآن الكريم، بشكل جديد ممتع للأعرابيِّ الذي كان يفخر بأنه فصيح وتربَّى ونشأ في مركز الفصاحة والبيان، بيَّن قريش وبني سعد وتميم وغيرهم ...

وحكى علماء اللغة أنَّ توقيف اللغات في الابتداء وقع على لغة واحدة، وما سواها من اللغات وقعَ التوقيف عليها بعد الطوفان من الله تعالى في أولاد نوح حين تفرقوا في أقطار الأرض ... وقال أهل التحقيق من العلماء: لا بدَّ من التوقيف في أصل اللغة الواحدة؛ لاستحالة وقوع الاصطلاح على أوَّل اللغات من غير معرفة من المصطلحين بعين ما اصطَلحوا عليه؛ وإذا حصل التوقيف على لغة واحدة جاز أن يكون ما بعدها من اللغات اصطلاحاً، وأن يكون توقيفاً؛ ولا يُفْطَع بأحدهما إلا بدليل، وقالوا: واختلفوا في لغة العرب؛ فمن زعم أنَّ اللغات كلُّها اصطلاحٌ فكذلك قوله في لغة العرب، ومن قال بالتوقيف على اللغة الأولى، وأجاز الاصطلاح فيما سواها من اللغات اختلفوا في لغة العرب؛ فمنهم من قال: هي أوَّل اللغات، وكلُّ لغة سواها حدثت بعدها إمَّا توقيفاً أو اصطلاحاً، واستدلُّوا بأنَّ القرآن كلام الله وهو عربيّ، وهو دليل على أنَّ لغة العرب أسبقُ اللغات وجوداً<sup>(٣)</sup>.

وقال عبد الملك بن حبيب: كان اللسان الأوَّل الذي نزل به آدم من الجنة عربياً، إلى أنَّ بعد العهد وطال، حرَّف وصار سُريانيّاً، وهو منسوب إلى أرض سُورى -كطوبى، موضع في العراق- أو سُوريانه، وهي أرض الجزيرة، بها كان نوح عليه السلام وقومه قبل الغرق. قال: وكان يشاكل اللسان العربي، إلا أنَّه محرَّف، وهو كان لسانَ جميع من في سفينة نوح، إلا رجلاً واحداً يقال له جُرهَم، فكان لسانه لسانَ العربي الأوَّل؛ فلما خرجوا من السفينة تزوَّج إرم بن سام بعض بناته؛ فمنهم صار اللسان العربي في ولده عَوْص أبي عاد وعبيل، وجاثر أبي ثمود وجديس، وسميت عادٌ باسم جرهم؛ لأنه كان جدُّهم من الأمِّ، وبقي اللسان السرياني في ولد أَرْفَخْشَد بن سام، إلى أن وصل إلى يشجب بن قحطان من ذريَّته وكان باليمن؛ فنزل هناك بنو إسماعيل؛ فتعلَّم منهم بنو قحطان اللسانَ العربيَّ<sup>(٤)</sup>.

أمَّا إسماعيل فإنَّه غير عربيّ، ولسانه في الأساس غير العربية، إلا أنَّ لسانه فُتِقَ بالعربية إلهاماً ليتناسب مع وجوده في أرض العرب، واللسان العربي.

١- اعتاص الأمر: اشدت واختلط عليه ولم يهتد إلى الصواب.

٢- الصاحبي، صفحة (١٨).

٣- المزهر، (٢٨-٢٧/١).

٤- نفس المصدر (٣١-٣٠/١).

أخرج الحاكم في المستدرك وصحَّحه، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سفيان الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>، ثم قال: ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً .

وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه - البداية والنهاية - قيل أن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل هم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وجُرهم، والعماليق، وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله، كانوا قبل الخليل عليه السلام، وفي زمانه أيضاً . فأما العرب المستعربة، وهم عرب الحجاز، فمن ذرية إسماعيل عليه السلام، وأما عرب اليمن وحمير فالمشهور أنهم من قحطان<sup>(٢)</sup>.

### ف لغة العرب نوعان :

أحدهما: لغة حمير، وهي التي تكلموا بها من عهد هود ومن قبله. ولغة العرب العاربة. الثانية : العربية المحضة التي نزل بها القرآن، وأول من أنطق لسانه بها إسماعيل؛ فعلى هذا القول يكون توقيف إسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إما أن يكون اصطلاحاً بينه وبين جرهم النازلين عليه بمكة، وإما أن يكون توقيفاً من الله تعالى وهو الصواب. وهذا ما يراه الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين من المفسرين<sup>(٣)</sup>.

وقال الشيرازي في كتاب الألقاب: أخبرنا أحمد بن سعيد المعداني: أنبأنا محمد بن أحمد ابن إسحاق الماسي، حدثنا محمد بن جابر، حدثنا أبو يوسف يعقوب بن السكت، قال: حدثني الأثرم عن أبي عبيدة، حدثنا مسمع بن عبد الملك، عن محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أول من فُتق لسانه بالعربية المتينة إسماعيل عليه السلام، وهو ابن أربع عشرة سنة، فقال له يونس : صدقت يا أبا سيار؛ هكذا حدثني به أبو جزي<sup>(٤)</sup>.

وصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرشي وتربى في بنى سعد الفصحاء ليأخذ عنهم اللغة، إلا أن لغة مثل اللغة العربية لغة القرآن الكريم والبيان والسحر اللغوي، كان ذلك في الصغر ومع الناس وفصحائهم كاف، فلما بُعث نبياً أُوحيت إليه اللغة العربية المتينة ليكون أفصح العرب، ولهذا كان يقول: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، وقد ذُكرت العديد من الآثار التي تبين أن اللغة العربية الفصيحة المتينة ألهمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، منها: قال أبو أحمد الفطريف في جرئه: حدثنا أبو بكر ابن محمد بن أبي شيبة ببغداد: أخبرنا أبو الفضل حاتم بن الليث

١- سورة فصلت، الآية (٣)

٢- المزمهر (١/ ٢٣) .

٣- انظر المزمهر (١/ ٢٨) .

٤- المزمهر (١/ ٣٤) .

الجوهري، حدّثنا حمّاد بن أبي حمزة اليشكري، حدّثنا علي بن الحسين بن واقد، نبأنا أبي عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ عن أبيه، عن عمر بن الخطّاب أنّه قال: يا رسول الله؛ مَا لَكَ أَفْصَحْنَا وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرْنَا؟ قال: كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَتْ فجاء بها جبريل عليه السلام فحَفَظْنِيهَا، فحَفَظْتُهَا . أخرج ابن عساكر في تاريخه<sup>(١)</sup>.

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي رافع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مُثِّلَتْ لِي أُمَّتِي فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ، وَعُلِّمَتِ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا، كَمَا عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا<sup>(٢)</sup>.

وقد انتشر بين علماء المسلمين أنّ اللغة العربيّة لغة يوم القيامة ولغة أهل الجنة، وقد استندوا على حديث النبي صلى الله عليه وسلم أخرج الطبراني في المعجمين الأوسط والكبير والبيهقي والحاكم وابن أبي شيبة: «أَحَبُّوا الْعَرَبَ لثَلَاثَ: لِأَنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وَلِغَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْعَرَبِيَّةِ»<sup>(٣)</sup>. وذكر الطبرسي في مجمع البيان الحديث مروياً عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير الآية الثانية من سورة يوسف<sup>(٤)</sup>.

وقال محمد باقر عن اللغة العربيّة: هي لغة عدد من الأنبياء العظام السابقين -عليهم السلام- وقد كانوا يتكلّمون بها، ولقد جاء في بعض الروايات أن خمسة من أنبياء العرب: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، ومحمّد -عليهم السلام-، وأنّ لغة النبي آدم -عليه السلام- حينما كان في الجنّة كانت العربيّة، حيث أنّها لغة أهل الجنّة<sup>(٥)</sup>.

وقد تتبّعت صحة الحديث لأقف على حقيقة المسألة فتبين لي ما يلي: أن هذا الحديث حكم عليه ابن الجوزي بالوضع. وقال الذهبي: أظن الحديث موضوعاً، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ١٦٠. و ١٦١) موضوع. وقال الحافظ السلفي: هذا حديث حسن، فعلق عليه شيخ الإسلام: فما أدري أراد حسن إسناده على طريقة المحدثين، أو حسن متنه على الاصطلاح العام. وقال ابن تيمية: لا يُعْلَمُ بِأَيِّ لُغَةٍ يَتَكَلَّمُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ. وذكر أبو الفرج بن الجوزي الحديث في الموضوعات. وقال الثعلبي: لا أصل له<sup>(٦)</sup>.

والحاصل أنّه لم يرد دليل صحيح يبيّن اللغة التي يتكلّم بها أهل الجنّة، وما هو مشاع في كتب علماء المسلمين أنّ لغة أهل الجنّة هي اللغة العربيّة ليس له دليل صحيح .

واللغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني،

١- المزهر (١/ ٢٤) .

٢- المزهر (١/ ٣٥) .

٣- شبكة الفتاوى الشرعيّة .

٤- انظر مركز الإشعاع الإسلامي، إجابة الشيخ صالح الكرباسي

٥- بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمّة الأطهار (١١/ ٥٦) الشيخ محمّد باقر المجلسي- ط . مؤسسة الوفاء ، بيروت - لبنان - ١٤١٤هـ .

٦- انظر اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٥٨) و موقع نحن العرب . وموقع الألوكة ، المجلس العلمي .

وجودتها وقصورها، بحسب تمام الملكة أوتقصانها<sup>(١)</sup>، أما كيف تأخذ اللغة عادة؟ وممن أخذت اللغة العربية الشريفة؟ وهل وضع علماء اللغة العربية شروطاً عمّن تأخذ اللغة العربية لصيانتها؟ ففي القرن الثاني والثالث والرابع قام علماء اللغة بهمة يجمعون اللغة العربية الفصيحة والرديئة أو المذمومة والغريبة، وكان لهم في ذلك رأي في جمع كل ما يسمعون من اللغة، فأخذوا عن الفصحاء والبلغاء والشعراء والصبيان والمجانين، وضبطت اللغة العربية الشريفة في مصنفات المعاجم اللغوية والمعنوية وغريب اللغة ودواوينها والرسائل والكتب المتخصصة، فوصلت إلينا لغتنا ذاخرة لا يحيط بها إلا نبي . موصّفة بالفصيحة والصحيحة والمرذولة، فأبو منصور الأزهري صاحب كتاب تهذيب اللغة، كان ينقل عن الأعراب مباشرة، وكان يذكر اسم الأعرابي الذي ينقل عنه اللغة، ويبيد رأيه في هذه اللغة ومقدار صحتها، وكان متشدداً في أخذه للغة وتوصيفها. أما أبو نصر الجوهري صاحب معجم تاج اللغة وصحاح العربية، فقد كان لا يأخذ إلا ما صحّ عنده فيثبته في معجمه . وكان كلّ لغوي يقصد من جمعه للغة مقصداً معيناً.

وأثبت في هذه الفقرة ما التزم به - من الصحيح مقتصر على - الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري في خطبة كتاب الصحاح، قال: قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها، على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه.... بعد تحصيلها في العراق رواية، وإتقانها دراية، ومُشافهتي العرب العاربة في ديارهم بالبادية. ولم أُل في ذلك نصحاً، ولا ادخرت وسعاً<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ في هذه المقدمة أن الجوهري كان حريصاً على وصف اللغة العربية بأنّ الله شرف منزلتها، ويقصد بذلك نزول القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى باللغة العربية .

وحرص علماء اللغة لذلك أشدّ الحرص على ذكر اللغات المذمومة، مثل: العنينة التي تذكر عن تميم، فكانوا يقلبون الهمزة في كلامهم عيناً. والكشكشة التي في لغة أسد، فكانوا يبدلون الكاف شيئاً، وبعضهم يصل بالكاف شيئاً. وكذلك الكسكسة التي في ربيعة فيصلوا بالكاف شيئاً. وحروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حوّلوا عند التكلّم بها إلى أقرب الحروف مخرجاً، فمن تلك الحروف الحرف الذي بين الباء والفاء، مثل (بُور) إذا اضطروا، قالوا: فور. وبنو تميم يلحقون القاف باللهاء حتى تغلظ جداً، فيقولون ( القوم ) فيكون بين الكاف والقاف. وكذلك الباء التي تجعل جيماً في النسب، يقولون ( غلامج ) أي ( غلامي ). وكذلك الباء المشددة تحوّل جيماً في النسب<sup>(٣)</sup>، وهكذا... فقد ذكر علماء اللغة اللغات المذمومة والرديئة

١- مقدّمة ابن خلدون (٦٤٨) .

٢- معجم تاج اللغة وصحاح اللغة العربية - المقدّمة - (١ / ٢٧) تحقيق: إميل يعقوب ومحمّد طريفي - دار الكتب العلميّة - بيروت - لبنان . وانظر المزهر (٩٧/١) .

٣- انظر الصاحبي، صفحة ( ٣٥ - ٤٠ ) والمزهر (٢٢١/١) .

والقبيحة، كما ذكروا اللغة الفصيحة المتينة، حكاية للغة كاملة، واستبقاء لها على مرّ العصور .  
وقد تكلم علماء اللغة في معرفة من تُقبل روايته ومن ترد ، فقال ابن فارس: تؤخذ سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويُنقى المظنون . وكان ينصح أخذ اللغة وغيرها من العلوم أن يتحرى أخذها من أهل الأمانة والثقة والصدق والعدالة<sup>(١)</sup> .

وتوسّع علماء اللغة في وضع مثل هذه الشروط، فقال ابن الأنباري في لُمع الأدلة -في أصول النحو-: يُشترط أن يكون ناقل اللغة عدلاً، رجلاً أو امرأة، حرّاً كان أو عبداً، كما يشترط في نقل الحديث، لأنّ بها معرفة تفسيره وتأويله، فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله، وإن لم تكن في الفضيلة من شكله، فإن كان ناقل اللغة فاسقاً لم يقبل نقله . . . ويقبل نقل العدل الواحد، ولا يشترط أن يوافقه غيره في النقل<sup>(٢)</sup> .

واللغة العربيّة وسعت الفصحى واللهجات والمعرّب والمصنوع والمولّد، أمّا المولّد: هو ما أحدثه المولّدون الذين لا يُحتجّ بألفاظهم، والفرق بينه وبين المصنوع أن المصنوع يُورده صاحبه على أنه عربيّ فصيح، وهو بخلافه . فالمولّد من الكلام: المحدث . وقال الفارابي -في ديوان الأدب - هذه عربيّة، وهذه مولّدة . ومن أمثلته: قال ابن دريد في الجمهرة: كان الأصمعيّ يقول: النّحرير<sup>(٣)</sup>: ليس من كلام العرب وهي كلمة مولّدة . وقال: الخُم: القوصرة يُجعل فيها التبن لتبيض فيها الدجاجة، وهي مولّدة . وقال الجوهري -في الصحاح-: أهون الصمم، يقال هو مولّد . والماش: حبّ وهو معرّب أو مولّد . وقال البغدادي -في ذيل الفصح-: الفطرة لفظ مولّد، وكلام العرب صدقة الفطر، مع أن القياس لا يدفعه . . . وقال: أجمع أهل اللغة على أنّ التشويش لا أصل له في العربيّة، وأنّه مولّد، وخطّؤوا الليث فيه، وقولهم: ستّي: بمعنى سيّدي مولّد ، ولا يقال: ستّ إلا في العدد . وقال ابن الأنباري -في شرح المقامات-: قيل: الطُفيليّ: لغة محدثة لا توجد في العتيق من كلام العرب، كان رجل بالكوفة يقال له: طُفيل، يأتي الولاثم من غير أن يدعى إليها فنسب إليه<sup>(٤)</sup> . . . وفي ذلك بحر من الكلام المولد والمحدث والمصنوع، وهذا مثل فقط .

وبعد هذه الجولة القيّمة في ربوع العربيّة يجدر بنا أن نلقي الضوء على كتاب ( اللغة العربيّة أصل اللغات ) فإنّ مؤلف الكتاب عبد الرحمن أحمد البوريني يرى أن اللغة إلهام من الله تعالى علّمها لآدم وأنّ اللغة التي تعلّمها آدم من ربّه جلّ وعلا هي لغة أهل الأرض الأولى، فقد كانت لغة آدم، ولغة أبنائه وأحفاده الذين تشكّل منهم المجتمع البشري الأوّل .

١- انظر الصحابي، صفحة (٤٨) .

٢- المزهر (١/ ١٣٨) .

٣- التحرير: الحاذق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن البصير بكلّ شيء

٤- انظر المزهر (١/ ٣٠٤) وما بعدها .

ولمّا كانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم -وهي القرآن- بيانية في المقام الأوّل، إذ جاء كلام الله تعالى بألفاظ عربيّة في صورة آيات باهرة، متحدية الإنس والجنّ إلى قيام الساعة أن يأتي بمثلها، فقد حازت العربيّة الشرف ذاته الذي حازته لغة آدم من الله سبحانه وتعالى، وخرجت كلتاهما من النبع ذاته، ويقول: وهذا ما حملني على القول بأنّ اللغة العربيّة هي لغة آدم وأصل اللغات جميعاً<sup>(١)</sup>.

ولهذا يرى أنّ التفاهم بواسطة اللغة كان بلغة واحدة، وللأرض لغة واحدة هي العربيّة وما عداها لهجات منبثقة منها، وعندما يتعد قوم بلهجتهم عن اللغة الأصل تكتسب تلك اللهجة مع مرور الزمن الشخصية الاعتباريّة كلفة<sup>(٢)</sup>.

### لغتنا الذائخة

سأل أحمد بن فارس سؤالاً افتراضياً: هل يجوز أن يحاط باللغة العربيّة؟ فأجاب: «كلام العرب لا يحيط به إلا نبي» ونسبه إلى بعض الفقهاء دون ذكر اسمه، وقال وهذا كلام حريّ أن يكون صحيحاً. وما بلغنا أنّ أحداً ممن مضى ادّعى حفظ اللغة كلّها<sup>(٣)</sup>.

والذي نقله أحمد بن فارس عن بعض الفقهاء ولم يذكرهم نصّ عليه الإمام الشافعيّ -رضي الله عنه- فقال: لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي؛ ولكنّه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء<sup>(٤)</sup>.

وعقد ابن فارس باباً بعنوان: باب القول على أنّ الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير، وأنّ كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله. قال فيه: ذهب علماؤنا أو أكثرهم إلى أنّ الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقلّ... ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاء شعر كثير وكلام كثير<sup>(٥)</sup>.

وكلام علماء اللغة في هذا الباب يحكي ضخامة الإرث الأدبي واللغوي للعربيّة، فمنذ فجر التاريخ للأمة العربيّة كان يتكون معها أدبها الذي ضاع واندثر معظمه قبل فترة تدوين الحضارة العربيّة، وبقي من الشعر والنثر وأحاديث الحكماء والعقلاء والأدباء والخطباء والبدو وغيرهم مع قلته بالنسبة لما اندثر وضاع عبر القرون والتاريخ السحيق، كان مفخرة لأدب العربيّة وحضارتها

١- انظر اللغة العربيّة أصل اللغات، صفحة (٩)، تأليف عبد الرحمن البوريني، دار الحسن للنشر والتوزيع، الأردن - عمّان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

٢- انظر المصدر السابق، صفحة (١٠).

٣- الصاحبي، صفحة (٢٦).

٤- الرسالة، للإمام الشافعي، صفحة (٤٢) طبعة مصطفى البابي الحلبي - بمصر - ١٣٥٧هـ.

٥- المزهر (١/ ٢٧).

اللغوية، فإن ما وصل إلينا من آداب العربية لا يتعدى مائة وخمسين سنة قبل البعثة النبوية الشريفة، وكما قال علماء اللغة : وضاع منه الكثير. وهذا الأدب الجم الذي وصلنا هو ما ادخرته الحضارة العربية على تنوع علومه وفنونه على مر العصور.

قال أبو منصور الأزهري: قال الليث: تقول: ذَخَرْتُ الشيءَ أَذْخَرُهُ ذُخْرًا، وَأَذْخَرْتُهُ أَذْخَارًا... وقال الزجاج - في قوله جلَّ وعزَّ ﴿وَمَا تَذْخِرُونَ فِي يَوْمِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> - : أصله : تَذَخِرُونَ، لأن الدال حرف مجهول لا يمكن النفس أن يجري معه، لشدة اعتماده في مكانه، والتاء مهموسة فأبدل من مخرج التاء حرف مجهول يشبه الدال في جهرها - وهو الدال - فصار : تَذْخِرُونَ ، ثم أَذْغَمَت الدال في الدال فصار : تَذْخِرُونَ . والأصل أن يدغم الأول في الثاني . قال: ومن العرب من يقول : « تَذْخِرُونَ » بذال مشددة، وهو جائز .. والأول أكثر (تَذْخِرُونَ)<sup>(٢)</sup> . والذخيرة واحدة الذخائر وهي ما أُذْخِر .. وكذلك الذُّخْر ، والجمع أَذْخَار ، وَذَخَرَ لنفسه حديثاً حسناً أبْقَاه ، وهو مثل بذلك<sup>(٣)</sup> . و( ذَخَرَ ) الشيءَ - ذَخَرًا ، وَذُخْرًا : خَبَأَهُ لَوْقَتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ... و( الذَّاخِرُ ) : السمين<sup>(٤)</sup> .

فمادة ( ذَخَرَ ) في أصل معناها تدلّ على إبقاء الشيء الحسن وأدخاره والمحافظة عليه لأهميته في مكان آمن ، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَذْخِرُونَ فِي يَوْمِكُمْ﴾ . فالذخائر: كلُّ ما يُؤَثَّرُ في الحضارة العربية أو يُدْخَرُ لنفسه، من المفردات والكلمات والحكم والخطب والمقالات والموضوعات القيّمة من شعر ونثر وغيرها ، على تنوع علوم العربية وما يتعلق بها .

وذخيرة العربية النفيسة لا تدانيها الآداب القديمة والحديثة الأخرى، إذ يدخل ضمنها العديد من التراث الديني - القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما يتعلق بهما من علوم - وسائر كتب اللغة والأدب - الشعر والنثر - والتاريخ وعلوم البلاغة والنحو والصرف والعروض وفقه اللغة العربية والأصوات اللغوية وموسوعات الثقافة العربية والإسلامية والفكرية في ألوانها المتعددة ... وغير ذلك.

وقد تخيل علماء اللغة العربية اتساع موادها اللغوية، وعملوا على استقصاء كلام العرب مما تكلموا به أو رَغِبُوا عنه مما يَأْتَلَفُ أَوَّلَايَاتُ، وذكر السيوطي طريقة معرفة عدد أبنيتها وجذور موادها اللغوية ، مما يستبين لنا المجهود الهائل الذي عاناه علماء اللغة العربية في هذا المجال، فكل بناء ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي تحصى تقلباته وتضرب بعدد الأحرف الهجائية للغة

١- سورة آل عمران، (٤٩) .

٢- تهذيب اللغة ( ذخر ) ( ٢٢١/٧ ) الدار المصرية للتأليف والترجمة . سلسلة : تراثا .

٣- لسان العرب ( ذخر ) ( ٢٨٩ / ٥ ) صورة عن طبعة بولاق . الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٤- المعجم الوسيط ( ذخر ) ( ٣٠٩ / ١ ) . الطبعة الثانية . مجمع اللغة العربية .

العربية، فيخرج معنا عدد أبنية الثنائي الصحيح والمعتل والمهموز والمضعف، ثم يتجه إلى الثلاثي والرباعي والخماسي، فيستخرج منها الأبنية والمواد المحتملة، وقد عدّها تفصيلاً، وفي النهاية ذكر العدد المحتمل، فقال: ذكر حمزة الأصبهاني في كتابه الموازنة فيما نقله عنه المؤرّخون، قال: ذكر الخليل في كتاب «العين» أنّ مبلغ عدد أبنية كلام العرب المُستعمل والمُهمل على مراتبها الأربع، من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من غير تكرار، اثنا عشر ألفاً وثلاثمائة ألف وخمسة آلاف وأربعمائة وأثنا عشر. ثم يذكر عدد أبنية كل نوع. وقيل بأن العدد أقلّ من ذلك<sup>(١)</sup>.

وهذا يفسّر ما نقله العلماء عن الشافعي في اتساع اللسان العربي، كما حرص الأزهري -الذي افتخر وزها بكتابه التهذيب كثيراً- أن ينقل هذا الكلام ويثبته في التهذيب، وزاد على ذلك ما قاله الشافعي: وإن على الخاصة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون إليه لدينهم الاجتهاد في تعلّم لسان العرب ولغاتهما، التي بها تمام التوصل إلى معرفة ما في الكتاب والسّن والآثار، وأقوال المفسّرين من الصحابة والتابعين، من الألفاظ الغريبة والمخاطبات العربية، فإنّ من جهل سعة لسان العرب وكثرة ألفاظها، وافتنانها في مذاهبها، جهل جُمْل علم الكتاب، ومن علمها ووقف على مذاهبها، وفهم ما تأوّل أهل التفسير فيها، زالت عنه الشبهة الداخلة على من جهل لسانها من ذوي الأهواء والبدع<sup>(٢)</sup>.

والذي ينظر في كتاب تهذيب اللغة<sup>(٣)</sup> وهو موسوعة لغويّة ضخمة نُقلت مشافهة عن لسان العرب الفصحاء الخُلص، عامتهم من هوازن واختلط بهم أصراً من تميم وأسد، ووثيقة صحيحة للغة العربيّة، وأحد أهمّ المراجع لمعجم لسان العرب، لم يدع الأزهري أنه استطاع استقصاء كلام العرب برمتّه، وإنما كان واقعياً، فقال: وكتابي هذا، وإن لم يكن جامعاً لمعاني التنزيل وألفاظ السنن كلّها، فإنّه يحوز جملاً من فوائدها، ونكتاً من غريبها ومعانيها<sup>(٤)</sup>.

ونقل اللغوي التحرير أحمد بن فارس -في: باب القول على أنّ لغة العرب، هل يجوز أن يحاط بها- قول الإمام الشافعي: «كلام العرب لا يُحيط به إلا نبي». وعلّق على ذلك بقوله: وهذا حريّ أن يكون صحيحاً. وما بلغنا أن أحداً ممن مضى ادّعى حفظ اللغة كلّها.

فأمّا الكتاب المنسوب إلى الخليل وما في خاتمته من قوله: «هذا آخر كلام العرب» فقد كان الخليل أَوْعُ وأتقى لله جلّ ثناؤه من أن يقول ذلك<sup>(٥)</sup>. وأثبت عدّة أقوال في أدبه وزهده وتقواه.

١- انظر المزهري (١/ ٧٢. ٧٣. ٧٤).

٢- تهذيب اللغة - المقدّمة - (١/ ٥).

٣- بلغ عدد أجزاء معجم تهذيب اللغة خمسة عشر جزءاً، بحسب طبعة الدار المصريّة للتأليف والترجمة

٤- انظر تهذيب اللغة - المقدّمة - (١/ ٥).

٥- الصاحبى في فقه اللغة، صفحة (٢٦). وانظر المزهري (١/ ٦٤).

وإذا كان اللغوي الفذ يأخذ اللغة العربيّة من أفواه الفصحاء، فإنّه كان يفخر بهذا العمل، ومن هؤلاء البدو: أبو ثروات العكلي، وأبو الجراح العقيلي، وأبو حزام العكلي، وأمّ الحمارس البكريّة، وأبو شنبل الأعرابي، وأبو صاعد الكلابي، وأبو الغمر العقيلي، وغنيّة الكلابيّة، وقريبة الأسديّة، وأبو مرّة الكلابي، وأبو مهدي الباهلي، وأبو مهديّة الكلابي<sup>(١)</sup>... وغيرهم جمع من البدو ذكروا في المعاجم اللغوية التي استقى مادتها علماء اللغة العربيّة.

وكان علماء البصرة يفتخرون على الكوفيين بأنهم أخذوا اللغة من أهل المدر، وأن الكوفيين أخذوها من أهل الحضرة، وروى السيوطي عن الأندلسيّ في شرح المفصل، أنّ «الكوفيين لو سمعوا بيتاً واحداً، فيه جواز شيء مخالف للأصول، جعلوه أصلاً، ويؤبوا عليه، بخلاف البصريين» ويروي عنه أيضاً أنّه قال: «ومما افتخر به البصريون على الكوفيين، أن قالوا: نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشوايز، وباعة الكوامخ»<sup>(٢)</sup>.

وقد كان اللغويون يقصدون الصحراء ومضارب البدو في أرجاء الجزيرة العربيّة، يعيشون مع البدو ويسألونهم عن لغاتهم ولهجاتهم، ويدوّنون ما يسمعون، وقد سأل الكسائي (المتوفى سنة ١٨٩هـ) الخليل بن أحمد قائلاً: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج الكسائي إلى البادية، ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قتيّنة حبر، في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ<sup>(٣)</sup>.

وكان عصر جمع اللغة العربيّة من مظانها في القرن الثاني الهجري على مسؤولية كبار علماء اللغة إلى نهاية القرن الرابع، أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي -المتوفى سنة ١٧٥هـ-<sup>(٤)</sup> وكان أوّل من صنّف في جمع اللغة، ألف كتاب العين المشهور؛ قال الإمام فخر الدين في المحصول: «أصل الكتب المصنّفة في اللغة كتاب العين»... وقال السيرافي -في ترجمة الخليل-: عمل أوّل كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة<sup>(٥)</sup>.

وكان من جلساء الخليل<sup>(٦)</sup> اللغوي المشهور عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعي، وكان من أوثق الناس في اللغة، وأسرع الناس جواباً، وأحضر الناس ذهنًا، وتوفّي سنة ست عشرة ومائتين؛ وهو ابن إحدى وتسعين سنة<sup>(٧)</sup>. وله الرسائل اللغويّة الحسان التالية: الإبل، الخيل،

١- الفهرست، لابن النديم - القاهرة ١٢٤٨هـ - صفحة (١٦).

٢- الإقتراح في علم أصول النحو، لجلال الدين السيوطي، - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩هـ - صفحة (٨٤).

٣- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي - طبعة الخانجي بالقاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م - (١١ / ٤٠٤)

٤- انظر ترجمته في: طبقات النحويين واللغويين، صفحة (٤٧) لأبي بكر الزبيدي، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م

٥- المزهر (١ / ٧٦).

٦- انظر طبقات النحويين واللغويين، صفحة (٥٠) عند ترجمة الخليل بن أحمد

٧- ترجمته في المرجع السابق صفحة (١٦٧).

النشأ، الوحوش، الفرق، خلق الإنسان، النبات والشجر<sup>(١)</sup>.

وممن جمع اللغة وامتلات الموسوعات اللغوية والأدبية برواياته محمد بن زياد أبو عبد الله المشهور بابن الأعرابي، قال الجاحظ: كان نحوياً عالماً باللغة والشعر، ناسباً كثير السماع من المفضل بن محمد الضبي... وقال ثعلب: شأدت ابن الأعرابي، وكان يحضر مجلسه زهاء مائة إنسان، كل يسأله أو يقرأ عليه ويجب من غير كتاب. قال: ولزمته بضعة عشرة سنة، ما رأيت بيده كتاباً قط، وما أشك في أنه أملى على الناس ما يحمل على أجمال، ولم ير أحد في علم الشعر واللغة كان أغزر منه.

وله من الكتب: النوادر، الأنواء، صفة المحل، صفة الدرع، الخيل، مدح القبائل، معاني الشعر، تفسير الأمثال، النبات، الألفاظ، نسب الخيل، نوادر الزبيريين، نوادر بني فقعس، النبث والبقل. ولد سنة خمسين ومائة، ومات سنة ثلاثين ومائتين<sup>(٢)</sup>.

وممن اشتهر في عصر جمع اللغة العربية: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي اللغوي الشافعي، المشهور بابن دريد، مؤلف كتاب جمهرة اللغة، ولد بالبصرة سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ومات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وقرأ على علمائها، حتى صار رأس أهل هذا العلم، وروى عنه خلق كثير، منهم: أبو سعيد السيرافي، والمُرزباني، وأبو الفرج الأصبهاني، وله شعر كثير، وروى من أخبار العرب وأشعارها ما لم يروه كثير من أهل العلم<sup>(٣)</sup>.

قال أبو الطيب اللغوي عن ابن دريد: هو الذي انتهت إليه لغة البصريين وكان أحفظ الناس، وأوسعهم علماً، وأقدرهم على الشعر، وما أزدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامها في صدر خلف الأحمر وابن دريد، وتصدر ابن دريد في العلم ستين سنة<sup>(٤)</sup>.

وللأزهري في ابن دريد رأي، فقد التقاه الأزهري - بعد أن فك أسره، حيث أسر سنة ٢١٢ هـ - وقد بلغ ابن دريد ثماناً وتسعين سنة، فوهنه ولم يؤتقه، ورماه بافتعال العربية، وتوليد الصيغ التي ليس لها أصول، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم<sup>(٥)</sup>. ولكن السيوطي له رأي آخر في ابن دريد، فقال: «قلت: معاذ الله هو بريء مما رُمي به، ومن طالع الجمهرة رأى تحريره في روايته»<sup>(٦)</sup>، ولعل ما قاله الأزهري - في ابن دريد - مصانعة لأستاذه نفطويه، وقيل: في هذا الوقت كان ابن دريد قد بلغ العجز، والإعاقة الفكرية.

١ - انظر فصول في فقه العربية، صفحة (٢٠٤) د. رمضان عبد التواب، دار التراث، ط. أولى القاهرة ١٩٧٣.

٢ - بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة، (١٠٥ / ١) للسيوطي، ط. أولى. عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

٣ - المرجع السابق (٧٦ / ١).

٤ - مراتب النحويين، أبي الطيب اللغوي، صفحة (٨٤) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مطبعة نهضة مصر، سنة ١٩٥٤ م.

٥ - أنظر تهذيب اللغة، المقدمة (٢١ / ١).

٦ - المزهر (٩٣ / ١).

وقد ألف ابن دُرَيْد كتباً جيّدة وهي مصادر للغة العربيّة وآدابها، أهمّها: ١- الموسوعة اللغويّة الفريدة في تنظيمها: كتاب جمهرة اللغة، ٢- السرج واللجام، ٣- كتاب الإشتقاق، ٤- كتاب الملاحن، ٥- كتاب صفة السحاب والغيث والرواد، ٦- كتاب المقتبس، ٧- كتاب الوشاح على نهج، ٨- كتاب المحبّر لابن حبيب، ٩- كتاب الخيل الكبير، ١٠- كتاب الخيل الصغير، ١١- كتاب الأنواء، ١٢- كتاب المجتبى، ١٣- كتاب المقتنى، ١٤- كتاب الأمالي، ١٥- كتاب المقصور والممدود، ١٦- كتاب السلاح، ١٧- كتاب غريب القرآن - (لم يتم)، ١٨- كتاب فعلت وأفعلت، ١٩- كتاب أدب الكتاب - لم يجرده من المسوّدة، ٢٠- كتاب اللغات - ذكر في الجمهرة، ٢١- كتاب ما سئل عنه لفظاً فأجاب عنه حفظاً - جمعه علي بن إسماعيل بن حرب عنه، ٢٢- كتاب تقويم اللسان - لعله كتاب أدب الكتاب، ٢٣- كتاب الأنباذ - ذكره في الجمهرة، ٢٤- كتاب المتناهي في اللغة، ذكره القالي، ٢٥- كتاب النوادر، ولعل الصواب أنّه لأبي زيد<sup>(١)</sup>.

وشعره كثير، ومن معروف شعره (المقصورة) التي تغلّغت البلاد، ودخلت الغور والنجاد، وأراد الشعراء مقابلتها وراموا مساجلتها، غير أنّه لم يبلغ شوطها أحد ولاصيتها، وهي جامعة لأخبار العرب وآثارهم مع سلاسة في ألفاظها وعذوبة في حوارها. وقصيدته الأخرى في (المقصود والممدود) وأشعار كثيرة ذكرها القالي في أماليه، والزجاج وغيرهما<sup>(٢)</sup>.

وممن جمع اللغة وحرص على المحافظة عليها أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي، وكتب التراجم والتاريخ سكّنت عن بيان تحديد سنة ميلاده، وهو من أقران الأزهرى - المولود سنة ٢٨٢هـ -، ولد في أواخر القرن الثالث الهجري، والمرجح أنّه مات في سنة ٣٥٠هـ، وعليه أكثر المؤرخين<sup>(٣)</sup>. وهو مؤلّف كتاب (ديوان الأدب) وهو في حقيقة أمره معجم لغوي محض، ولا يكاد يمتّ لأدب ودراستها التقليديّة بصلة، وكتاب بيان الإعراب، وكتاب شرح أدب الكاتب، وكتاب الألفاظ والحروف<sup>(٤)</sup>، وهو غير الفارابي الفيلسوف المشهور.

ابتدع الفارابي نظاماً فريداً وجديداً في رصد وجمع اللغة العربيّة في تأليف كتابه (ديوان الأدب) وكان له الأثر الكبير في حركة المعاجم العربيّة، فقد جمع للمرّة الأولى بين كتب الأفعال والمصادر والأسماء على أساس الأبنية، وترتيب أبواب الأسماء والأفعال بحسب حروف المعجم على الألف باء في كتاب واحد، فاتّبع فيه نظاماً مبتكراً أعجب به جميع من أتى بعده من أصحاب كتب الأبنية والمعاجم أيضاً. فنظام ترتيب الأبواب والفصول بحسب حروف المعجم ابتكره

١- جمهرة اللغة - المقدّمة - (٨ / ١) مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة.

٢- نفس المصدر (١٠ / ١).

٣- انظر ديوان الأدب، للفارابي (١ / ٣ - ٤) تحقيق د. أحمد مختار عمر. مجمع اللغة العربيّة، القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٤- نفس المصدر (٨ / ١)، وانظر بغية الوعاة (١ / ٤٣٧).

الفارابي واتبعه فيما بعد ابن أخته الجوهري في كتابه (تاج اللغة وصحاح العربية)<sup>(١)</sup>.

ومن مشاهير عصر جمع اللغة العربية : محمد بن أحمد بن الأزهر ، أبو منصور الأزهرى اللغوي الأديب الهروي الشافعي، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين، أخذ عن الربيع بن سليمان، ونفطويه، وابن السراج، وأدرك ابن دريد ولم يرو عنه، ورد بغداد وأسرتة القرامطة، فبقي فيهم دهرًا طويلا، وكان رأساً في اللغة، أخذ عنه الهروي صاحب الغريبين، وله من التصانيف: (التهذيب في اللغة)، تفسير ألفاظ مختصر المزنّي<sup>(٢)</sup>، التقريب في التفسير، شرح شعر أبي تمام، الأدوات، وغير ذلك، وكان عارفاً بالحديث، عالي الإسناد، ثخين الورع، مات سنة سبعين وثلاثمائة<sup>(٣)</sup>.

وقد أخذ كتاب (تهذيب اللغة) سمعة طيبة، واشتهر بدقّة تعبيره، وثبات ألفاظه، وصحّة مواده اللغوية المأخوذة مشافهة عن الأعراب، فاعتمده علماء اللغة مصدرا للغة العربية الفصيحة، قال ابن منظور عن تهذيب اللغة: (ولم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى)<sup>(٤)</sup>.

ومن درّس (كتاب تهذيب اللغة) وقارنه بالمعاجم السابقة له، ظهر له مجهود الأزهرى واضحا، فقد ذكر حسين نصار أنّه قد أتى بجديد في المواد، إذ زاد على مادة العين والجمهرة كثيرا من المواد والمعاني، بل الأقوال التي تفسّر لفظاً واحداً ذا معانٍ متقاربة وربما واحدة، وصدرت من لغويين مختلفين، وفحص ألفاظه فحصا شديداً، ونقد ألفاظ سابقيه، فصّح كثيراً من مفردات اللغة. ويتصل بذلك الشواهد القرآنية والحديثية الكثيرة التي أدخلها في معجمه، فأصبحت من التراث المعجمي<sup>(٥)</sup>.

وكان سبب ضلوع الأزهرى باللغة وثقة علماء اللغة بكتاب التهذيب، أنه كان منذ حداثة سنّه مولعاً بالبحث عن المعاني والاستقصاء فيها، وأخذها من مظانها، وإحكام الكتب التي تأتي له سماعها من أهل الثبّت والأئمة المشتهرين، وأهل العربية المعروفين. ولما امتحن بالأسر - سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير سنة ٣١٢ هـ - كان القوم الذين وقع في سهمهم عرباً عامتهم من هوازن، واختلط بهم أصرام من تميم وأسد. وقد استفاد من مخاطباتهم ومحاوره بعضهم بعضا

١- انظر المعجم العربي، نشأته وتطوره، د. حسين نصار - دار الكتاب العربي بمصر - ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م.

٢- قمت بتحقيقه، واسمه: الزاهر في غريب ألفاظ الإمام الشافعي، الموجودة في مختصر المزنّي، مطبوع، سنة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، دار البشائر - بيروت.

٣- انظر بغية الوعاة (١٩/١).

٤- لسان العرب (٢/١) لابن منظور - طبعة مصورة عن طبعة بولاق - الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٥- انظر المعجم العربي - نصّار - (١/ ٣٢٠).

ألفاظاً جمّة ونوادر كثيرة، أوقع أكثرها في مواقعها من كتاب تهذيب اللغة<sup>(١)</sup>.

فكان الأزهري أوثق اللغويين رواية ودراية من أبناء عصره، شافه الأعراب وأخذ عن كبار العلماء وكان يقول مثلاً: حدّثني أبو الفضل محمد بن أبي جعفر المنذري العدل قال: أخبرني أبو الحسن الصيداوي عن الرّياشي أنه سمع الأصمعيّ يقول: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: ما في الدنيا أحد إلا وأنا أعلم بالشعر منه<sup>(٢)</sup>. ويقول: قال الليث: قال الخليل بن أحمد: العين والحاء لا يأتلفان في كلمة واحدة أصلية الحروف، لقرب مخرجيهما . . . - ثم يقول - قلت: وهو كما قال الخليل. وقد روي في باب الخماسي حرفان ذكرتهما في أول الرباعي من العين. ولا أدري ما صحّتهما لأنّي لم أحفظهما للثقّات. ويقول: قال النضر بن شميل في كتاب الأشجار: الخُعْخُع: شجرة. قال: وقال أبو الدقيش: هي كلمة معاياة<sup>(٣)</sup> ولا أصل لها. قلت: وقد ذكر ابن دريد الخُعْخُع في كتابه أيضاً، وأرجو أن يكون صحيحاً؛ فإن ابن شميل لا يقول إلا ما أتقنه<sup>(٤)</sup>.

فالأزهري اتّبع منهجاً صحيحاً في جمع اللغة العربيّة الفصيحة، فكان يدقق في فصاحة الألفاظ، ونسبة الأقوال لأصحابها، ويرد ما يشكّ بفصاحته، ويناقش من يخطأ، ويبيد رأيه فيما يسمع أو يقرأ، ويتدخل في كل مادة لغوية ليناقش مُفَنِّدًا أو مرجّحاً، والمُحَلِّل للفقرة السابقة وهي من صفحة واحدة من (تهذيب اللغة)، يتيقن أنّ الأزهري كان حريصاً على اللغة الفصيحة، بأن لا يداخلها لهجة أو لكّة أو عبارة رديئة، وسار على هذا المنهج في كل كتابه.

وكان غرض الأزهري من تأليف كتاب (التهذيب) كما يدل اسمه إلى تنقية العربيّة من الشوائب ومن آفات الكتب المصحّفة وتمييز الألفاظ الصحيحة من السقيمة، قال: وقد سمّيت كتابي هذا (تهذيب اللغة) لأنّي قصدت بما جمعت فيه نفي ما أدخل في لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، وغيّرها الغُتَم عن سننها، فهذّبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطأ بقدر علمي، ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله؛ والغريب الذي لم يُسنده الثّقات إلى العرب<sup>(٥)</sup>.

أما مقدمة كتاب (تهذيب اللغة) فهي من الوثائق الفريدة من نوعها، فقد وضعها الأزهري لتكون مرجعاً هاماً في تثبيت نسبة الألفاظ المعتمدة عنده، وتوثيق من يؤخذ عنهم من المشهود لهم بالعلم والتحرّي والدقّة من العلماء الأعلام، فكانت أوّل مرجع في تأريخ المدارس اللغوية، وأدقّ من وصّف طبقات المؤلفين اللغويين الموثوق بعلمهم.

١- انظر تهذيب اللغة، المقدّمة (٧/١) وما ذكره الأزهري عن نفسه.

٢- تهذيب اللغة، المقدّمة (٨/١).

٣- معاياة: من عيّ (عي) بمعنى عجز عن منطقه وفي بيان مراده

٤- تهذيب اللغة (٥٥/١) انظر باب العين والحاء - باب العين مع الهاء - باب العين مع الخاء.

٥- تهذيب اللغة، المقدمة (٥٤/١).

فقد عقد الأزهرى باباً سَمَاه: ( ذكر الأئمة الذين اعتمادي عليهم فيما جمعت في هذا الكتاب ) وذكر ما يقرب من الأربعين اللغويين الثقات، وصنّفهم على خمس طبقات. وقال في الطبقة الأولى: أبو عمرو بن العلاء، أخذ عنه البصريون والكوفيون من الأئمة الذين صنّفوا الكتب في اللغات وعلم القرآن والقراءات. وكان من أعلم الناس بألفاظ العرب ونوادر كلامهم، وفصيح أشعارهم، وسائر أمثالهم... وقال: ومن هذه الطبقة: خلف الأحمر... قال ابن سلام: وكان خلف بن حيّان أبو مُحَرَّر - وهو خلف الأحمر - أجمع أصحابنا، إنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لساناً: كُنَّا لا نبالي إذ أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه... وقال: أنا وكان الخليل بن أحمد، وهو رجل من الأزد من فراهيد... استخرج من العروض واستنبط منه ومن علله ما لم يستخرجه أحد، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم... ومن هذه الطبقة: المفضل بن محمد الكوفي، وكان الغالب عليه رواية الشعر، وحفظ الغريب<sup>(١)</sup>.

وفي الطبقة الثانية قال: ومن الطبقة الذين خلفوا هؤلاء الذين قدّمنا ذكرهم وأخذوا عن هؤلاء الذين تقدّموا خاصة وعن العرب عامة، وعرفوا بالصدق في الرواية، والمعرفة الثاقبة، وحفظ الشعر وأيام العرب: أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري؛ وأبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني مولى لهم، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، من تميم قريش مولى لهم؛ وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي؛ وأبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي... ولا يقدّم عليه أحد من أصحاب أبي عمرو بن العلاء في الضبط لمذهبه في قراءات القرآن. ومن هذه الطبقة من الكوفيين: أبو الحسن علي بن حمزة، وعنه أخذ أبو زكريّا يحيى بن زياد الفراء النحو والقراءات والغريب والمعاني<sup>(٢)</sup>. وغيرهم من العلماء الأثبات المتقنين.

أما الطبقة الثالثة فكان على رأسها من علماء اللغة: أبو عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة ٢٣٤هـ، وأبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي، المتوفى سنة ٢٣٠هـ، وأبو الحسن علي بن حازم اللحياني، وسماه السيوطي: علي بن المبارك وقيل: ابن حازم<sup>(٣)</sup> - لم تعرف سنة وفاته -، ومن هذه الطبقة: نصير بن أبي نصير الرازي<sup>(٤)</sup>، ومنهم: أبو عمرو بن أبي عمرو الشيباني، المتوفى سنة ٢٣١هـ، ومنهم: أبو حاتم السجستاني، المتوفى سنة ٢٥٠هـ، وأبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكّيت، وغيرهم من اللغويين الثقات<sup>(٥)</sup>.

١- انظر تهذيب اللغة، المقدمة ( ١ / ٨ - ٩ - ١٠ ) .

٢- تهذيب اللغة، المقدمة ( ١ / ١١ ) .

٣- بغية الوعاة ( ٢ / ١٨٥ ) .

٤- لم تذكر سنة وفاته انظر بغية الوعاة ( ٢ / ٢١٦ ) وقد اعتمد السيوطي في ترجمته على الأزهرى ، قارن مع التهذيب ( ١ / ٢٢ ) .

٥- انظر تهذيب اللغة، المقدمة ( ١ / ١٩ - ٢٤ ) .

وهكذا ذكر في الطبقة الرابعة العلماء الثقات<sup>(١)</sup>، أما الطبقة الخامسة فقد خصّصها للحديث عن العلماء الذي أدركهم في عصره، مثل: أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج النحوي المتوفى سنة ٢١١هـ، وأبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري النحوي، وأبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة، الملقب بنفطويه، وهؤلاء الثلاثة أخذ عنهم الأزهرى مباشرة<sup>(٢)</sup>.

ولحرص الأزهرى على اللغة العربيّة الفصحى ذكر بعض العلماء -في رأيه- الذين عرفوا واتسموا بسمّة المعرفة وعلم اللغة، وألّفوا كتباً أودعوها الصحيح والسقيم، وحشّوها بالمزال المُفسّد والمصحّف المغيّر، الذي لا يتميّز ما يصحّ منه إلا عند النُقَاب -أي: العلامة البحّثة الفطن- المبرّز، والعالم الفطن، ليحذّر الأعمار اعتماداً ما دُونوا، والاستنامة إلى ما ألّفوا<sup>(٣)</sup>.

فبرز الأزهرى بشخصيته الواضحة جامعاً للغة العربيّة الفصيحة، بعد أن جاب الصحراء ومضارب الأعراب الرّحل ذهاباً وإياباً، فعندما امتحن بالأسر سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير<sup>(٤)</sup> -سنة ٢١٢هـ- وكان القوم الذي وقع في سهمهم عرباً عامتهم من هوازن، واختلط بهم أصراً من من تميم وأسّد ونشؤوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النّجّع، ويرجعون إلى أعداد طلاب المياه، ويرعون النّعم ويعيشون بألبانها، ويتكلّمون بطباعهم البدويّة وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحنٌ أو خطأ فاحش، فبقي في أسرهم دهرًا طويلاً، وكان يتشتّى الدّهناء، ويتربّع الصّمان، واستفاد من مخاطباتهم ومحاوره بعضهم بعضاً ألفاظاً جمّة ونوادر كثيرة، أوقع أكثرها في مواقعها من كتاب تهذيب اللغة<sup>(٥)</sup>.

والذي سار عليه الأزهرى في جمع اللغة العربيّة الفصيحة أصبح منهجاً مهماً درج عليه علماء العربيّة من بعده، فقد ألّف الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهريّ الفارابي -المولود بضارب سنة ٢٢٢هـ، المتوفى سنة ٣٩٢هـ، وقيل سنة ٣٩٨هـ<sup>(٦)</sup> كتابه تاج اللغة وصحاح العربيّة، ومن الواضح أن كتاب تهذيب اللغة قد ألّفه الأزهرى قبل تأليف الجوهريّ كتابه، ولكن السيوطي قال: (وأوّل من التزم الصحيح مقتصرًا عليه الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهريّ، ولهذا سمّى كتابه بالصّحاح)<sup>(٧)</sup> ثمّ ذكر ما قاله الجوهريّ في مقدمة كتابه، وما قاله الجوهريّ في مقدمة الكتاب ليس مفهوماً أنّه أوّل من اهتمّ بالصّحيح، قال الجوهري: (فإنّي قد أودعت في هذا

١- انظر تهذيب اللغة، المقدّمة (١ / ٢٥) .

٢- انظر تهذيب اللغة، المقدّمة (١ / ٢٧) .

٣- انظر تهذيب اللغة، المقدّمة (١ / ٢٨) .

٤- الهبير: هورمل زروذ في طريق مكّة، وعنده كانت وقعة القرمطي أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الهجري.

٥- انظر تهذيب اللغة، المقدّمة (١ / ٧) والزاهر في غريب ألفاظ الإمام الشافعي، لأبي منصور الأزهرى، تحقيق: د. عبد المنعم

طوعي بشنّاتي، صفحة (٢٠-٢١) ط. أولى، دار البشائر الإسلاميّة، ١٩٩٨م/١٤١٩هـ .

٦- المعاجم اللغويّة، تأليف إبراهيم محمد نجا، (ص ٩٦) مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٦م .

٧- الزمهر (١/٩٦) .

الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة، التي شَرَّف الله منزلتها) <sup>(١)</sup>.

ولقد قيل: إن كان الخليل أول من ابتدع الفكرة المعجمية، فالجوهري أول من يسّر أمرها وذلّل صعبها. ثم أنه أضاف إلى فكرته وهي تذليل الصعوبة في البحث قصره الجمع على صحيح اللغة بطريقة الرواية والدراية والصحة. ولعل فكرة جمع اللغة الفصيحة فقط استهوت الجوهري واستوحاها من كتب جمع الأحاديث والسنة: صحيح البخاري ومسلم، فاقتصر كتاب تاج اللغة، وصحاح العربيّة، على مسمّاه.

وقد خاف علماء اللغة أن تختصر اللغة العربيّة على الصحيح منها عند الجوهريّ، فذهبوا يتمّون ما أهمله الجوهريّ، فألف الحسن بن محمّد بن الحسن الصّاغاني -المتوفّى سنة ٦٥٠هـ- معجمه: (التكملة والذيل والصلة، لكتاب تاج اللغة وصحاح العربيّة)، وكان هدفه من تأليف كتابه، جبر النقص الواقع في كتاب تاج اللغة وصحاح العربيّة، قال الصّاغاني: (هذا كتاب جمعت فيه ما أهمله أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ -رحمه الله- في كتابه، وذيلت عليه، وسمّيته كتاب: (التكملة والذيل والصلة غير مُدّع استيفاء ما أهمله، واستيعاء ما أغفله) <sup>(٢)</sup> وكُتِبَ على الوجه الأول للمخطوط تنمّة عنوان الكتاب (لتاج اللغة، وصحاح العربيّة).

وقد أُعْجِبَ ابن منظور -المتوفّى سنة ٧١١هـ- بترتيب كتاب (تاج اللغة وصحاح العربيّة) ورآه مختصراً، فخفّ على النّاس أمره فتناولوه، وقرب عليهم مأخذه فتناولوه وتناقلوه، غير أنّه في جو اللغة كالذرة، وفي بحرهما كالقطرة، وإن كان في نحرهما كالذرة <sup>(٣)</sup>.

فلما وضع مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي -المتوفّى سنة ٨١٧هـ- كتابه القاموس المحيط أراد أن يتمّ ما أهمله الجوهريّ في كتابه، فقال: (ولمّا رأيت إقبال النّاس على صحاح الجوهريّ وهو جدير بذلك غير أنه فاته نصف اللغة وأكثر، إمّا بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادرة). فالفيروزآبادي وغيره لم يتنبّهوا إلى أنّ الجوهريّ إنّما كان يضع المواد التي صحّت عنده فقط، لأنّه أراد أن يجمع الصحيح عنده.

وإذا كان الجوهريّ زها بكتابه تاج اللغة وصحاح العربيّة بأنّه جمع الصحيح فقط، فإنّ علماء اللغة العربيّة كانوا له بالمرصاد، وقعدوا يصوّبون له الأخطاء اللغويّة والشاذة التي كان قد وضعها على أنّها صحيحة وسليمة، ولأنّ كتاب تاج اللغة انتشر بين الدارسين فتتبع العلماء سقطاته، وقد جمع إبراهيم محمد نجا المأخذ التي وُجّهت إليه، والكتب التي ألّفت في هذا الموضوع، منها ما

١- تاج اللغة وصحاح العربيّة، المقدّمة (١/ ٢٧).

٢- التكملة والذيل والصلة، لكتاب تاج اللغة وصحاح العربيّة، المقدّمة (٤ / ١) تأليف الحسن بن محمّد بن الحسن الصّاغاني، تحقيق عبد العليم الطحاوي، مطبعة دار الكتب - القاهرة - ١٩٧٠ م.

٣- انظر لسان العرب، (١/ ٣).

علّقت عليه لتوضيح غوامضه، أو نسبة الأشعار إلى قائلها، أو تصحيح الأعلام الواردة فيه، أو تصويب بعض أوهام الجوهرى، ومنها كتب بعض الحواشي عليه، ومنها ما اعتنت بتكملة وتذييل الصحاح، ومنها ما ألف لنقده والدفاع عنه وإحقاق الحق، ومنها من كان هدفه التجريح والنيل من الجوهرى<sup>(١)</sup>.

والذي ذكره هنا من علماء لغتنا الذاهرة، لا يعدو قطرة من محيط علماء اللغة ونحوها وآدابها، وكتبهم الفياضة الناضحة بالعلم، فقد افتنّ علماء العرب والإسلام في تدوين حضارتهم اللغوية والأدبية والنحوية مما يدعو إلى الإعجاب بكتبهم وأسفارهم على مرّ العصور والأجيال، فحفظوا اللغة من الضياع، والآداب من السقوط، والقاعدة النحوية والصرفية من الانحلال، ولم يكن ذلك فقط الاهتمام في هذه المسائل فقط بل في كلّ العلوم الدينية والسياسية والتاريخية والعقدية والفكرية والوجدانية وغيرها من العلوم التي اهتم بها العالم الإسلامي، فخلف لنا علماء أمتنا الإسلامية كمّاً هائلاً من المؤلفات التي لاتعدّ ولا تحصى .

وللمحافظة على ثبات اللغة العربية قام آلاف العلماء اللغويين يجمعونها من مظانها، ومواطن نشأتها، وشدوا الرحال من عرب وعجم، خدمة للغة القرآن الكريم، وسعيّاً لدراساتها واستظهار مكنونها، فقد كانت اللغة العربية تحوي كنزاً لغوياً هائلاً، فوضعت المجاميع اللغوية والنحوية والأدبية، فحفلت بالمفردات المستعملة الفصيحة والرديئة والشاذة، والمرويات الأدبية، وكذا مناظرات العلماء، والمناقشات في بلاط أمير المؤمنين، والاستشهاد بالشعر والخطابة والمقالات الأدبية، وأخبار الحفاظ، والقراء والنحويين ... وغير ذلك، ويذكر السيوطي<sup>(٢)</sup> في مقدمة كتابه (بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة) - انتهى من تأليفه سنة إحدى وسبعين وثمانمائة<sup>(٣)</sup> - أنه اعتمد في جمع أسماء العلماء على العديد من موسوعات الأعلام التي ألفها علماء التراجم قبله، فجمعوا علماء اللغة عبر العصور، فبلغ ما أخذه عنهم من التراجم تسعة ومائتين وألفين<sup>(٤)</sup> عالماً باللغة العربية وما يتصل بها من آدابها ونحوها ونكاتها ... وغير ذلك .

لقد أجمع علماء اللغة العربية منذ صدر الإسلام من خلال دراستهم للغة العربية أن ذخائر أمّتهم يجب إبرازها بصورة رائعة، وقد نجح علماء أمّة اللغة العربية في هذه المهمة الصعبة في المحافظة على الإرث اللغوي العربي، والنتائج الباهرة التي نحن ننعم بها اليوم أننا نجد أيّ موضوع يريد الدارس اللغوي أن يبحثه، فإنّ مصادره متوفرة بل سخية، وأنّ ما درسه العلماء القدامى كان له العديد من جوانب الابداع والابتكار .

١- انظر المعاجم اللغوية، صفحة ( ١١٩ - ١٢٢ ) .

٢- انظر بغية الوعاة، المقدمة ( ١ / ٦-٣ ) .

٣- نفس المصدر ( ٢ / ٤٢٩ ) .

٤- انظر نفس المصدر ( ٢ / ٣٦٦ ) .